الآيات المتشابهة والحكمة من ورودها في القرآن الكريم

المدرس الدكتور
نهضة صاحب هاشم
Nahda.alsharifi@gmail.com
الجامعة الإسلامية ـ النجف الأشرف

Ambiguous Verses and Their Wisdom in the Quran

Lecturer Dr.
Nahdha Sahib Hashim
The Islamic University - Al Najaf Al Ashraf

الملخص:-

تتباين مذاهب العلماء في مسألة تأويل الآيات المتشابهة فبعضٌ يأخذ بظواهرها تاركا التأويل جانبا، فيقع في اشكالات كبيرة كالتجسيم، وفي المقابل يأتي تأويل اصحاب النظر الدقيق والفكر العميق، وقد اجتهد العلماء في بيان فلسفة ورود المتشابه، فمنهم من يرى أن وجود المتشابه في القرآن ضروري ناشئ عن وجود التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضا، ومنهم من بيّن ان الحكمة من ورودها ربط الإنسان بالله تعالى، وبالمعاد، وطرح قضايا جديدة أمام العقل البشري، كبعض المسائل الكونية أو الإنسانية وغيرها، ليتدبر حقيقتها ويكتشف ظلماتها المجهولة.

الكلمات المفتاحية: المتشابه، المحكم، التأويل، الحكمة، العقل، المذهب.

Abstract:-

The scholars' opinions vary on the interpretation of the ambiguous verses in the Quran. Some take these verses at face value, avoiding interpretation, which can lead to significant issues like anthropomorphism. In contrast, others with keen insight and profound thought delve into interpretation. Scholars have endeavored to elucidate the philosophy behind the presence of these ambiguous verses. Some believe that their existence is necessary due to the need for interpretation, which causes parts of the Quran to explain each other. Others have clarified that the wisdom behind these verses lies in connecting humans to Allah, the afterlife, and presenting new challenges to human intellect, such as certain cosmic or human issues, prompting reflection on their true nature and uncovering their unknown aspects.

Keywords: Ambiguous, Clear, Interpretation, Wisdom, Intellect, Doctrine

المقدمة:

إن مسائل تأويل الآيات المتشابهة ومعرفة فلسفة ورودها في القرآن الكريم ليست حديثة عهد بالبحث والدراسة؛ لأن السؤال طُرح قديما وما زالت حرارته باقية إلى يومنا هذا، بل لقد تشعبت المسائل واتخذ البحث غورا أعمق وبُعدا أوسع ومسلكا لم يتطرق اليه المتقدمون من العلماء، لذا يمكننا استشعار أهمية هذه المسائل وضرورة التوسع في دراستها والتنقيب فيها للوصول إلى مراد الله تعالى بأقصى طاقاتنا البشرية التي أودعها الله فينا.

ومن هذا المنطلق، ولأهمية الموضوع وضرورة الخوض في غماره اخذت على عاتقي البحث في المتشابه من الآيات، وقسّمته على ثلاثة مباحث، تناول الأول ما يتعلق بمفهوم المتشابه وعلاقته بالمحكم.

أما المبحث الثاني فقد بيّنت فيه مذاهب العلماء وطرقهم في التعامل مع المتشابه، وأما المبحث الثالث فقد استعرضت فيه جملة من آراء العلماء والمفسرين والفلاسفة حول حكمة ورود المتشابه في القرآن الكريم وهو المحور الرئيس في البحث.

وفي نهاية المطاف جاءت الخاتمة لتضم أهم النتائج التي توصل اليها البحث. ثم عرض مفصل لقائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

مفهوم المتشابه

المتشابه في اللغة: أصل لفظ المتشابه من الشِبه والشَبَه، ومعناه وجود شيئين أحدهما يشبه الآخر إلى درجة الالتباس، ومعنى الشبهة الالتباس، والمتشابهات من الأمور تعني المشكلات[١].

والشبهات مفردها شبهة، وأمور مشتبهة، ومشبهة، مشكلة، يشبه بعضها بعضًا، ومعنى شبّه عليه، اختلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره[٢].

وقيل المتشابه معناه المماثلة، والمماثلة بين امرين تعني ان لا يتميز احدهما عن الآخر لما بينهما من التشابه[٣].

المتشابه في الاصطلاح:

المتشابه ما أشكل فهمه على الإنسان فلم يستطع الوصول إلى معناه الحقيقي. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: ((وإنما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلات من عند أنفسهم بآرائهم واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء ونبذوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وراء ظهورهم))[٤].

وقسّم بعضهم المتشابه على ثلاثة أقسام من حيث إمكان أو عدم إمكان الوقوف على معناه: (ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك، وضرب للإنسان أسباب إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة، وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله لابن عباس: اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)[٥].

وقال الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ): (المتشابه ما كان المراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج إلى دليل، وذلك ما كان محتملا لأمور كثيرة أو أمرين ولا يجوز ان يكون الجميع مرادا فإنه من باب المتشابه، وإنما سمي متشابها لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد. وذلك نحو قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[٦] وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[٧] وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[٨] ونظائر ذلك من الآي التي المراد منها غير ظاهرها) [٩].

والمتشابه (ما يدل على مفهوم معيّن تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي)[١٠].

وقيل أن المتشابه على قسمين: (احدهما: ما إذ ردّ إلى المحكم واعتبر به عرف معناه، والآخر: ما لا سبيل إلى الوقوف على حقيقته، وهو الذي يتبعه أهل الزيغ فيطلبون تأويله، ولا يبلغون كنهه، فيرتابون فيه فيفتتنون)[١١].

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن المتشابه في القرآن فقال: ((وأما المتشابه من القرآن فهو الذي انحرف منه متفق اللفظ مختلف المعنى، مثل قوله عز وجل ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[١٢] فنسب الضلالة إلى نفسه في هذا الموضع، وهذا ضلالهم عن طريق الجنة بفعلهم، ونسبه إلى الكفار في موضع آخر ونسبه إلى الأصنام في آية أخرى.))[١٣].

ولا يكون التشابه في الآيات المتشابهة (من الناحية الدلالية، فإنه خلاف الفصاحة والبلاغة الساذجة فضلا عن القمة العليا لأعلى درجات الإعجاز في القرآن، وإنما التشابه الذي يزول بالتأمل في المتشابه أو بالرجوع إلى محكمها هو التشابه اللفظي كالأسماء والصفات المشتركة الاستعمال بين الله وخلقه، ثم الواقعي كالمحكمات الأحكامية المنسوخة حيث تتشابه الثابتة غير المنسوخة)[١٤].

التشابه والإحكام في القرآن الكريم:

جاءت مادة (شبه) في العديد من المواضع في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[١٥]، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[١٦]، ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[١٧]، ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[١٩].

إن القرآن يوصف تارة بأنه محكم كله، وتارة متشابه كله، وبعضه محكم وبعضه متشابه تارة أخرى، يشهد بذلك الوصف الذي أطلقه القرآن نفسه على آياته:

القرآن كله محكم:

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٢٠]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[٢١]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾[٢٢].

هنا جاء الوصف للدلالة على أنه محكم كله (إشعارا بأنه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انثلام فيه ليداخله لهو الحديث وباطل القول، ووصفه أيضا بأنه هدى ورحمة للمحسنين تتميما لصفة حكمته فهو يهدي إلى الواقع الحق ويوصل اليه لا كاللهو الشاغل للإنسان عما يهمه، وهو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة)[٢٣].

القرآن كله متشابه:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[٢٤]، والمقصود من وصف الكتاب كله بالمتشابه (الكلام المتناسق الذي لا تناقض فيه ويشبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه ولا

تضاد، وكل آية فيه أفضل من الأخرى، والمتماثل من حيث اللطف والجمال والعمق في البيان... إذ نرى فيه انسجاما خارقا، وتناسقا لا نظير له في المفاهيم والفصاحة والبلاغة)[٢٥].

القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾[٢٦]، هذه الآية تقودنا إلى الوصف الأخير وهو ان آيات القرآن بعضها محكم وبعضها متشابه، قال الفيلسوف الكبير الفيض الكاشاني (ت:١٠٩١هـ) لدى وقوفه عند هذه الآية الكريمة: (﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عباراتها بأن حفظت من الإجمال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصله يرد إليها غيرها ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ محتملات لا يتضح مقصودها إلا بالفحص والنظر ليظهر فيها فضل العلماء الربانيين في استنباط معانيها وردّها إلى المحكمات وليتوصلوا بها إلى معرفة الله تعالى وتوحيده)[٢٧].

ماهيّة التشابه:

قال العلامة محمد باقر الحكيم (ت:٢٠٠٣م) بشأن الآية السابعة من سورة آل عمران (نتصور التشابه المقصود في الآية الكريمة ضمن نطاق التشابه في تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه الواقعي الموضوعي، لا في نطاق التشابه في العلاقة بين اللفظ ومفهومه اللغوي "المعنى")[٢٨].

فالتشابه عند السيد الحكيم غير ناشئ بسبب (الاختلاط والتردد في معاني اللفظ ومفهومه اللغوي، لأننا فرضنا أن يكون للفظ مفهوم لغوي معين، وإنما ينشأ من ناحية أخرى وهي الاختلاط والتردد في تجسيد الصورة الواقعية لهذا المفهوم اللغوي المعين، وتحديد مصداقه في الذهن من ناحية خارجية)[٢٩].

وجاء في التمهيد للشيخ معرفة (ت:١٤٢٧هـ): (وهكذا نجد في القرآن آيات محكمة بيّنة المراد مما يعود إلى بيان التكاليف والمواعظ والآداب وما شابه، في وفرة وفيرة تعم أكثرية الآيات الغالبة، وهن أم الكتاب، أي مراجع الأمة في معرفة الحلال والحرام والسنن والأخلاق)[٣٠]. وفي مقابل المحكمات تتجلى آيات أخرى (متشابهة المراد في عدد قليل مما

يعود إلى أصول المعارف والمبدأ والمعاد مما يخفى كنه المراد لغير المتعمقين في مثل قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣١]، فقد يخفى وجه الشبه في الآية في دقته وظرافته، سوى معرفة الظاهر من أنه تعالى منوّر السموات والأرض، الأمر الذي تفهمه العامة من ظاهر الآية وتقتنع به، أما الخاصّة فيعرفون وجه الشبه في خفاء الكنه وكونه تعالى كالنور قائما بذاته ومتنورا، وفي نفس الوقت منورا لغيره)[٣٢].

إن المتشابه غير مختص به التأويل،؛ لأن التأويل كما يجري على المتشابه يجري على آيات أخرى كثيرة تحتاج اليه، منها المحكم، قال العلامة الصادقي (ت:٢٠١١م): (ولا يخص التأويل هنا تأويل ما تشابه منه بل والمحكمات، حيث التأويل يعني المأخذ بدائيا والمآل نهائيا... والجدير بالذكر هنا أن للمتشابه تأويلين وللمحكم تأويل واحد، مهما كان لكلّ بطون)[٣٣].

وقيل: (إنما كان متشابها لتشابه مراده لا لكونه ذا تأويل فإن التأويل يوجد للمحكم كما يوجد للمتشابه، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فللمتشابه مفسر وليس إلا المحكم، مثال ذلك قوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٣٤] وبإرجاعها إلى قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٣٥] وقوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[٣٦] يتبين أن المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسي)[٣٧].

والملفت في مسألة التشابه انه يتعذر أحيانا تحديده تحديدا قاطعا في النصوص القرآنية، فقد تصبح الآية المحكمة متشابهة لدى فئة من الناس، ونفسها تصير محكمة لدى فئة أخرى، (فكم من آية هي محكمة لمستفسر عنها متشابهة لآخر، أم هي محكمة في بعض ألفاظها متشابهة في الأخرى، كما ومنها ما هي محكمة واقعيا إذ لم تنسخ ولكنها متشابهة لفظيا، أو محكمة لفظيا ومتشابهة عقليا أو علميا أو معرفيا)[٣٨]، وهذا يدل على نسبية التشابه والإحكام، فهما (أمران نسبيان في القرآن حسب مختلف الاستعدادات والتأملات، فلا متشابه إطلاقا لأهل بيت الرسالة صلوات الله عليهم أجمعين، وكلها متشابهة لمن لا يعرف اللغة العربية، وبينهما عوان)[٣٩]، والعوان الوسط، فالعلماء عوان بين المعصومين والعوامّ.

العلاقة بين المحكم والمتشابه:

اختلف في تحديد نقاط الافتراق القائمة بين المحكم والمتشابه، فذكر في تفسير المنار

وجوها منها[٤٠]:

- ان المحكمات هي قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٤١] إلى آخر الآية والآيتين اللتين بعدها. والمتشابهات هي التي تشابهت على اليهود وهي أسماء حروف الهجاء في أوائل السور فإنهم أوّلوها على حساب الجمل فأرادوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الامة فاختلط الأمر عليهم واشتبه. عن ابن عباس.
- ان المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ، عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما.
- ان المحكم ما كان دليله لائحاً واضحاً، كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة، والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل.
- المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي، أما المتشابه فهو ما لا سبيل إلى العلم به؛ كتوقيت قيام الساعة ومقدار الجزاء على أعمال العباد.
- أن التقسيم متعلق بالقصص، فالمحكم منها ما أحكم وفصّل فيه خبر الأنبياء وأممهم، والمتشابه ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم لدى تكرارها في السور، وأسهب في التمثيل له.

وذكر صاحب الاتقان وجوها أخرى[٤٢]:

- المحكم ما عرف المراد منه، ظهورا أو تأويلا، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والأحرف المقطعة في مفتتح السور.
- المحكم يتحمل من التأويل وجها واحدا فحسب، والمتشابه يحتمل أوجها.
- المحكم معناه معقول، والمتشابه بخلاف ذلك، كعدد الركع في الصلوات واختصاص الصيام بشهر رمضان دون شعبان أو غيره من الأشهر.
- المحكم ما استقل بنفسه، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.
- المحكم ما تأويله تنزيله، والمتشابه ما لا يوصل إلى معناه إلا بالتأويل.

المبحث الثاني

اختلاف المذاهب في تأويل الآيات المتشابهة

اختلفت المذاهب في مسألة تأويل الآيات المتشابهة التي تحمل ألفاظ الإتيان والمجيء والكلام والحياء، والوجه واليد والساق والعين، وما يماثلها من الألفاظ، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾(٤٣)، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(٤٤)، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٤٥)، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٤٦)، ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(٤٧)، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(٤٨).

وقيل أن للعلماء في المتشابه المتعلق بالصفات مذهبان: (الأول مذهب السلف، وهو الإيمان بهذه المتشابهات وتفويض معرفتها إلى الله تعالى... والثاني مذهب الخلف، وهو حمل اللفظ الذي يستحيل ظاهره على معنى يليق بذات الله)(٤٩).

وأورد بعضهم ان التعامل مع المتشابه على مذاهب لا مذهبين فحسب:

أولاً: موقف جملة من الفقهاء والمحدثين.

زعموا أن الآيات المتشابهة (لا مدخل للتأويل فيها؛ بل تجري على ظاهرها، ولا تؤول شيئا منها، وهم المشبهة)(٥٠)، فقاموا بتناول الالفاظ القرآنية على ظاهرها وإبقائها من دون تأويل وان كان يصطدم بالعقل أو ينافي القواعد العقلية، بادّعاء (ان القول بأن الله لا جهة له، وأنه ليس فوقاً ولا تحتاً ولا يمينا ولا شمالا إلى غير ذلك، يستلزم أن الله غير موجود، فإن التجرد من الاتصاف بهذه المتقابلات جملة أمر لا يوسم به إلا المعدوم ومن لم يتشرف بشرف الوجود)(٥١).

في الواقع ان من يأخذ بظاهر القرآن فحسب ولا يبذل جهدا بالغوص في المعاني العميقة والدلالات السامية فهو لا يمثل الا نفسه، وهذا ما صرح به الفيض الكاشاني بصريح الكلام منتقدا مذهب الأخذ بالظاهر ونبذ الباطن، فقال: (إن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ولكنه مخطئ في الحكم بردّ الخلق كافة إلى درجته التي هي حدّه ومقامه، بل القرآن الأخبار والآثار تدل على ان في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعا بالغا ومجالا رحبا)(٥٢).

وقال الفيلسوف الأندلسي ابن رشد (ت:٥٩٥هـ): (ان الجمهور يرون أن الموجود هو المتخيل والمحسوس، وأن ما ليس بمتخيل ولا محسوس فهو عدم، فإذا قيل لهم: إن ها هنا موجودا ليس بجسم، ارتفع عنهم التخيّل، فصار عندهم من قبيل المعدوم، ولاسيما إذا قيل: انه لا خارج العالم ولا داخله ولا فوق ولا أسفل)[٥٣]، ويقصد بالجمهور عوامّ الناس.

وفي الواقع ان هذه الأمور- ليس فوقاً ولا تحتاً ولا يمينا ولا شمالا...- في حقيقتها جلالية تنزيهية، وتعني سلباً لسمات النقائص، وليست من سمات كمالية الذات الإلهية الأحدية، فإن لله تعالى صفات جمالية وكمالية حقيقية، فهو الواحد الأحد الحي القيوم العالم القادر المريد... وكثير من الصفات، لكن لابد ان يكون سلب النقائص ملازم للذات الإلهية الكاملة، مثلما يكون سلب الجمادية ملازم للإنسان لكونه ناميا، وسلب الشجرية أيضا ملازم له لكونه حيوانا، وسلب الاعجمية كذلك لكونه ناطقا[٥٤].

إن هذا الادعاء منهم هو بمثابة (قياس للغائب على الشاهد، وقياس الغائب على الشاهد فاسد، ذلك أن الله تعالى ليس يشبه خلقه حتى يكون حكمه كحكمهم في وجوب أن يكون له جهة من الجهات الست ما دام موجودا، وكيف يقاس المجرد عن المادة بما هو مادي؟)[٥٥].

ثانياً: موقف علماء السلف

كان (السلف ينزهون الله عن هذه الظواهر المستحيلة عليه، ويؤمنون بها بالغيب كما ذكرها الله، ويفوضون علم حقائقها إليه، أما الخلف فيحملون الاستواء على العلو المعنوي بالتدبير من غير معاناة)[٥٦]، والاستواء هنا إشارة إلى الآية الكريمة ﴿الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٥٧].

فقد كان الصحابة زمن الرسول ﷺ مكتفين في الاستدلال على الإيمان بالله وتوحيده ومعرفة صفاته، وصدق النبي محمد ﷺ وما جاء به، ولم يركبوا متن اللجاج باستعمال المقاييس العقلية، ووضع المقدمات المنطقية والخوض في طرق المجادلة. ولذلك فقد وقفوا من الآيات المتشابهة موقف المؤمنين بها المسلّمين لها من غير أن يخوضوا في تفسيرها أو تأويلها، تاركين العلم بحقيقتها إلى الله تعالى، فلم يتنازعوا قط في المسائل المتعلقة بأسماء الله تعالى

وصفاته وأفعاله، بل كانوا كلهم على ما نطق به القرآن الكريم والسنة الشريفة، أصحاب كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم وتلقوها بالقبول والتسليم[٥٨]. وهذا التسليم حاصل في المسائل العقائدية إبّان عصر ازدهار دولة الرسول الأعظم، أما المسائل الشرعية فأمر تأويلها والاختلاف فيها بيّن.

ثالثاً: مسلك اصحاب الفكر العميق والنظر الدقيق

وهو (تأويل هذه الالفاظ وصرفها عن مفهومها الاول إلى معان يوافق عقولهم ويطابق قوانينهم النظرية ومقدماتهم الفكرية، التزاماً لتلك القوانين وتحفظا على تنزيه رب العالمين عن نقائص الامكان وسمات الحدثان ومثالب الاكوان والجسمان)[٥٩].

رابعاً: الخلط بين الأمرين

وهما (مذهب التشبيه والتنزيل في بعض الآيات والاخبار، ومذهب التنزيه والتأويل في البعض الآخر منها، فكل ما ورد في باب المبدأ ذهبوا فيه إلى مذهب التأويل، وكل ما ورد في باب المعاد جروا فيه على قاعدة التشبيه من غير تأويل، وهذا مذهب اكثر المعتزلة ومنهم الزمخشري والقفال وغيرهما من اهل الاعتزال، وجمهور علماء الامامية)[٦٠].

خامساً: مسلك الراسخين في العلم

تعبير (الراسخون في العلم) ورد مرتين في الكتاب الكريم (وبحسب المعنى اللغوي لهذه الكلمة فإنها تعني الذين لهم قدم ثابتة في العلم والمعرفة، طبيعي أن يكون معنى الكلمة واسعا يضم جميع العلماء والمفكرين، إلا ان بين هؤلاء أفرادا متميزين لهم مكانتهم الخاصة، ويأتون على رأس مصاديق الراسخين في العلم، وتنصرف اليهم الأذهان... بأنهم النبي ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام)[٦١]. عن الإمام الصادق عليه السلام ((نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله))[٦٢].

قال ابن قتيبة (ت:٢٧٦هـ): (لسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده، ويدلّ به على معنى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره. للزمنا للطاعن مقال، وتعلّق علينا بعلة، وهل يجوز لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه؟

وإذا جاز أن يعرفه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، فقد علّم عليا التفسير)[٦٣].

والراسخون في العلم هم (الذين ينظرون ببصائر قلوبهم المنورة بنور الله وعيون عقولهم الصحيحة من غير عمى ولا عور ولا حول، فهم يشاهدون وجه الله في كل موجود ويعبدونه في كل مقام اذ قد شرح الله صدورهم للإسلام، ونوّر قلوبهم بنور الإيمان، وكشف عنهم حجب الغيوب وأزاح عنهم الامراض والعيوب فهم لانشراح صدورهم وانفتاح روضة قلوبهم يرون مالا يراه غيرهم ويسمعون مالا يسمع سواهم، ليس لهم حرارة التنزيه ولا برودة التشبيه ولا الخلط بينهما، الداخل تحت جنسهما كالفاتر من الماء)[٦٤].

المبحث الثالث

الحكمة من ورود المتشابه في القرآن

في هذا المبحث سوف نستعرض اجتهادات جملة من العلماء والمفسرين للوصول إلى تصور منطقي موائم للعقل بشأن الإجابة عن التساؤل الآتي: قد تكون الآيات المتشابهة مدعاة للفهم الخاطئ للقرآن الكريم، لاسيما النفوس الضعيفة، والقلوب المريضة، فما فلسفة ورودها في كتاب الله تعالى؟

هذا السؤال هو المحور الرئيس الذي يدور حوله البحث، ولابد من ان يكون (تحقيق القول في المتشابه وتأويله يقتضي الإتيان بكلام مبسوط من جنس اللباب وفتح باب من العلم ينفتح منه لأهله ألف باب)[٦٥].

- **طعنوا في القرآن بسبب المتشابهات:**

قال الفخر الرازي (ت:٦٠٦هـ) في تفسيره الكبير: (اعلم أن من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال انكم تقولون ان تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم انّا نراه بحيث يتمسك به كل صاحب مذهب على مذهبه)[٦٦].

ومما يدعو إلى سخرية القدر مرارة التعصب للمذهب (واعلم أنك لا ترى طائفة في الدنيا إلا وتسمي الآيات المطابقة لمذهبهم محكمة، والآيات المطابقة لمذهب خصمهم متشابهة)[٦٧].

وقال الطباطبائي (ت:١٤٠٢هـ) في ميزانه: (من الاعتراضات التي أوردت على القرآن الكريم الاعتراض باشتماله على المتشابهات وهو أنكم تدعون أن تكاليف الخلق إلى يوم القيامة فيه، وأنه قول فصل يميز بين الحق والباطل، ثم إنا نراه يتمسك به كل صاحب مذهب من المذاهب المختلفة بين المسلمين لإثبات مذهبه، وليس ذلك إلا لوقوع التشابه في آياته، أفليس أنه لو جعله جليا نقيا عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى الغرض المطلوب، وأقطع لمادة الخلاف والزيغ؟)[٦٨].

وهو حاصل واقعا، فالجبريّ يتمسك بآيات الجبر، والقدريّ يرى ان هذا مذهب الكفار، والذي يعتقد برؤية الله عيانا يتمسك بالآية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٦٩]، والنافي للرؤية يتمسك بالآية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[٧٠]، وهلم جرا في كل الفرق والمذاهب والاتجاهات[٧١].

وحاصل أيضا في المحكم والمتشابه من الآيات القرآنية فيسمّي الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، والآيات المخالفة لمذهبه متشابهة، فوقع اللبس من هذه الجهة وانبثقت أقوال ونظريات متعددة.

وبيّن الشيخ الطوسي في تبيانه أن المشككين قالوا: (هلا كان القرآن كله محكما يستغنى بظاهره عن تكلف ما يدل على المراد منه حتى دخل على كثير من المخالفين للحق شبهة فيه وتمسكوا بظاهره على ما يعتقدونه من الباطل؟ أتقولون إن ذلك لم يكن مقدورا له تعالى؟ فهذا هو القول بتعجيزه! أو تقولون هو مقدور له ولم يفعل ذلك فلم لم يفعله؟)[٧٢].

- **تباين أفهام الناس:**

صنّف ابن رشد الناس على رتب ثلاث، اثنان منهم رتّبهم رُتباً نائيةً عن الشكوك والشبهات - على الرغم من البون الشاسع بينهما في الرؤى والمقاصد - وهم صنف العلماء - العالي - وصنف الجمهور - الداني-، أما الرتبة السقيمة فهم الشرذمة الذين في قلوبهم زيغ، والذين جاء ذمّهم في كتاب الله في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[٧٣]، قال: (والناس في هذه الأشياء في الشرع على ثلاث رتب: صنف لا يشعرون بالشكوك العارضة

في هذا المعنى، وخاصة متى تركت هذه الأشياء على ظاهرها في الشرع، وهؤلاء هم الأكثر، وهم الجمهور، وصنف عرضت لهم في هذه الأشياء شكوك ولم يقدروا على حلها، وهؤلاء هم فوق العامة ودون العلماء، وهذا الصنف هم الذين يوجد في حقهم التشابه في الشرع، وهم الذين ذمهم الله تعالى)[٧٤].

وقد وجدت هذا المعنى - إلى حدّ ما- عند الشيخ معرفة لدى بحثه في آية النور وهي من المتشابهات، فإن (العمدة أن الآيات المتشابهة أيضا ظاهرة المراد في ظاهر تعبيرها لدى العامة، ومن ثم يقتنعون بها ولا يرون فيها غموضا، وإن كانت الدقائق والظرائف التي تحتويها الآية خافية على غير أهل الدقة والعلم والمعرفة، فقد أصبحت الآيات القرآنية حسب ظواهر تعبيرها كلها بيّنة لائحة على العامّة، وإن كانت في باطن خباياها خفية على غير ذوي الاختصاص من الراسخين في العلم، فلم يعد شيء من الآيات باقية في طي الغموض أو التعقيد بصورة الإطلاق)[٧٥].

ولابن رشد مثال لطيف حول تباين تأثير المتشابهات في القرآن على فئات الناس هذه، فقد شبهها بالغذاء الذي ينفع بعضٌ ويضرّ ببعضٍ: (ومثال ما عرض لهذا الصنف مع الشرع، مثال ما يعرض لخبز البُرّ مثلا - الذي هو نافع لأكثر الأبدان- أن يكون لأقل الأبدان ضارا وهو نافع للأكثر، وكذلك التعليم الشرعي هو نافع للأكثر وربما ضرّ الأقل، ولهذا الإشارة بقوله تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٧٦])[٧٧].

وذهب ابن قتيبة مذهبا لغويا في الإجابة على السؤال: ماذا أراد الله بإنزال المتشابه في القرآن وهو المريد لعباده الهدى والتبيان؟ (فالجواب عنه: أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقِن، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر)[٧٨].

وبيّن أن تباين مستويات العلوم عموما مدعاة للتفاضل والتكامل (وكل باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يجلّ، ومنه ما يدقّ، ليرتقي المتعلم فيه رتبة بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه ويدرك أقصاه، ولتكون للعالم فضيلة النظر، وحسن

الاستخراج، ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية. ولو كان فنّ من العلوم شيئاً واحداً: لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خفي ولا جلي)[٧٩].

- **وجوه أخرى في حكمة ورود المتشابه:**

ذكروا وجوها في حكمة ورود المتشابهات في القرآن الكريم، منها: (انه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب، قال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٨٠])[٨١].

ومنها: إن العقل - الذي هو أشرف ما في البدن - (مبتلى باعتقاد حقية المتشابه كابتلاء البدن بأداء العبادة، كالحكيم: إذا صنّف كتابا أجمل فيه أحيانا؛ ليكون موضع خضوع المتعلّم لأستاذه، وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره)[٨٢].

ولو لم يمحّص العقل بالمتشابه من الآيات (لاستمر العالِم في أبهة العلم على التمرّد، فبذلك يستأنس إلى التذلل بعزّ العبودية، والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاما واعترافا بقصورها)[٨٣].

ومنها: (لّما كان القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلّم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلّم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة)[٨٤].

وذكر الشيخ الطوسي جوابين حول مسألة علة ورود المتشابه أحدهما: (ان خطاب الله تعالى - مع ما فيه من الفوائد - المصلحة معتبرة في ألفاظه فلا يمتنع أن تكون المصلحة الدينية تعلقت بأن يستعمل الألفاظ المحتملة ويجعل الطريق إلى معرفة المراد به ضربا من الاستدلال، ولهذه العلة أطال في موضع وأسهب، واختصر في آخر وأوجز، واقتصر وذكر قصة في موضع، وأعادها في موضع آخر، واختلفت أيضا مقادير الفصاحة فيه وتفاضلت مواضع منه بعضه على بعض)[٨٥].

أما الجواب الآخر فإن الله تعالى (إنما خلق عباده تعريضا لثوابه وكلفهم لينالوا أعلى

المراتب وأشرفها، ولو كان القرآن كله محكما لا يحتمل التأويل ولا يمكن فيه الاختلاف لسقطت المحنة وبطل التفاضل وتساوت المنازل ولم تبن منزله العلماء من غيرهم وانزل الله القرآن بعضه متشابها ليعمل أهل العقل أفكارهم ويتوصلوا بتكلف المشاق والنظر والاستدلال إلى فهم المراد فيستحقوا به عظيم المنزلة وعالي الرتبة)[٨٦].

وفي تفسير المنار (جعل الله المتشابه في القرآن حافزا لعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيموت، فإنّ السهل الجلي جدا لا عمل للعقل فيه، والدين أعز شيء على الإنسان فإذا لم يجد فيه مجالا للبحث يموت فيه وإذا مات فيه لا يكون حيا بغيره، فالعقل شيء واحد إذا قوي في شيء قوي في كل شيء، وإذا ضعف ضعف في كل شيء)[٨٧].

وقول آخر: (أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد)[٨٨].

وقد انتقد الطباطبائي هذه الإجابات بأن ثمة آيات كثيرة تدعو إلى التفكر وإعمال العقل، يصل عبرها إلى ضياء الاستدلال ونور البينة، ولا يقتصر الأمر على الآيات المتشابهة - التي وصفها بأنها مزالق للأقدام - فقال: (ان الله تعالى أمر الناس بإعمال العقل والفكر في الآيات الآفاقية والأنفسية إجمالا في موارد من كلامه، وتفصيلا في موارد أخرى كخلق السماوات والأرض والجبال والشجر والدواب والإنسان واختلاف ألسنته وألوانه، وندب إلى التعقل والتفكر والسير في الأرض والنظر في أحوال الماضين، وحرّض على العقل والفكر، ومدح العلم بأبلغ المدح وفي ذلك غنى عن البحث في أمور ليس إلا مزالق للأقدام ومصارع للأفهام)[٨٩].

ومن الأقوال الأخرى التي ذكرها الفخر الرازي قولٌ يصبّ في مصلحة أهل المذاهب بتنوع اتجاهاتهم، ويريح بالهم، فإن القرآن لو كان (محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع

أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فاذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق)[٩٠].

وقد انتقده صاحب المنار (ت:١٣٥٤هـ) بشدة ووصفه بأنه (أسخف هذه الأقوال وأشدها تشوّها)[٩١]، وأضاف: (لا أدري كيف أجاز له عقله أن يقول إن القرآن جاء بالمتشابهات ليستميل أهل المذاهب إلى النظر فيه وأن هذا طريق إلى الحق !! أين كانت هذه المذاهب عند نزوله؟ ومن اهتدى من أهلها بهذه الطريقة؟)[٩٢].

والملفت ان السيد الطباطبائي حين نظر إلى الوجوه المطروحة بشأن حكمة ورود المتشابهات في القرآن، وجدها - أو جلّها- لا تستحق المناقشة، إذ رأى أن هذا السؤال (أجيب عنه بوجوه من الجواب بعضها ظاهر السخافة، كالجواب بأن وجود المتشابهات يوجب صعوبة تحصيل الحق ومشقة البحث وذلك موجب لمزيد الأجر والثواب! وكالجواب بأنه لو لم يشتمل إلا على صريح القول في مذهب لنفر ذلك سائر أرباب المذاهب فلم ينظروا فيه، لكنه لوجود التشابه فيه أطمعهم في النظر فيه وكان في ذلك رجاء أن يظفروا بالحق فيؤمنوا به!...)[٩٣].

بالطبع لم يكن يقصد بالسخافة المعنى المتداول على الألسن اليوم، وإنما هو بمعناه اللغوي، أي الضعف، فهذه الإجابات في نظره ضعيفة لا تستحق الوقوف عندها ومناقشتها.

وأطلق الزركشي (ت:١٣٩٢هـ) إجابته في حكمة إنزال المتشابه على شقّين، الأول: ما كان من المتشابه ممن يمكن علمه من الله تعالى وأصحاب النظر العميق (فله فوائد، منها: ليحثّ العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائق معانيه... ومنها إظهار فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه إلى المزيد في طلب تحصيله، ليحصل له درجة الفضل)[٩٤]، أما الشق الآخر فهو ممن استأثر بعلمه الله تعالى وحده ولم يطلعه على أحد من البشر (فله فوائد، منها: إنزاله ابتلاءً وامتحانا بالوقف فيه والتعبد بالاشتغال من جهة التلاوة وقضاء فرضها وإن لم يقفوا على ما فيها من المراد الذي يجب العمل به... ومنها إقامة الحجة بها عليهم؛ وذلك إنما نزل بلسانهم ولغتهم، ثم عجزوا عن الوقوف على ما فيها مع بلاغتهم وإفهامهم)[٩٥].

بقي وجه وجيه لدى الفخر الرازي، فقد وجده الجواب الأقوى لبيان الحكمة من

وجود المتشابهات، وإن كان أيضا لم يسلم من الانتقاد والتسخيف[٩٦]، فإن القرآن الكريم (كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي، فوقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات)[٩٧].

- **ضرورة وجود المتشابه:**

قال العلامة الطباطبائي (ان وجود المتشابه في القرآن ضروري ناشئ عن وجود التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضا... ويتضح ذلك بعض الاتضاح بإجادة التدبر في جهات البيان القرآني والتعليم الإلهي والأمور التي بنيت عليها معارفه والغرض الأقصى من ذلك، وهي أمور: منها: أن الله سبحانه ذكر أن لكتابه تأويلا هو الذي تدور مداره المعارف القرآنية والأحكام والقوانين وسائر ما يتضمنه التعليم الإلهي، وأن هذا التأويل الذي تستقبله وتتوجه إليه جميع هذه البيانات أمر يقصر عن نيله الأفهام وتسقط دون الارتقاء إليه العقول إلا نفوس طهرهم الله وأزال عنهم الرجس، فإن لهم خاصة أن يمسّوه)[٩٨].

إن منتهى مراد الله تعالى من الإنسان هو الهداية إلى علم قرآنه الذي هو تبيان كل شيء، وطريق الهداية الأمثل: التطهير الإلهي، فجعل الغاية القصوى للوصول إلى الكمال الإنساني التطهير الإلهي، و (لا يظفر بكمالها إلا أفراد خاصة، وإن كانت الدعوة متعلقة بالجميع متوجهة إلى الكل، فتربية الناس بالتربية الدينية إنما تثمر كمال التطهير في أفراد خاصة، وبعض التطهير في آخرين، ويختلف ذلك باختلاف درجات الناس، كما أن الإسلام يدعو إلى حق التقوى في العمل، قال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٩٩]، ولكن لا يحصل كماله إلا في أفراد، وفيمن دونهم دون ذلك على طريق الأمثل فالأمثل، كل ذلك لاختلاف الناس في طبائعهم وأفهامهم)[١٠٠]، وهذا ينطبق على جميع الكمالات الإنسانية.

وقال صاحب المنار (ان الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف... فإذا كانت الدعوة إلى الدين موجهة إلى العالم والجاهل... وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف

عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه كل مخاطب عاميا كان أو خاصيا، ألا يكون في ذلك من المعاني العالية والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم)[١٠١].

وبيّن أن العوام تكليفهم ليس كتكليف الخواص، (فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده، مثال ذلك: إطلاق لفظ "كلمة الله" و "روح من الله" على عيسى ع فالخاصّة يفهمون من هذا ما لا يفهمه العامّة)[١٠٢].

ونوّه الطباطبائي إلى ان معاني ودلالات المتشابهات كالمعاني والدلالات الحقة المخبأة وراء الأمثال، تقفز قبلها ومعها معاني باطلة، فإن (اختلاف الأفهام وعموم أمر الهداية مع ما عرفت من وجود التأويل للقرآن هو الموجب أن تساق البيانات مساق الأمثال، وهو أن يتخذ ما يعرفه الإنسان ويعهده ذهنه من المعاني فيبين به ما لا يعرفه لمناسبة ما بينهما... وهذا كالآية المتشابهة تتضمن من المعنى حقا مقصودا، ويصاحبه ويعلو عليه بالاستباق إلى الذهن معنى آخر باطل غير مقصود، لكنه سيزول بحق آخر يظهر الحق الأول على الباطل الذي كان يعلوه، ليحق الحق بكلماته ويبطل الباطل ولو كره المجرمون)[١٠٣].

وللعلامة محمد باقر الحكيم رأي شمولي حديث جدير بالنظر متعلق بالإجابة عن علة ورود المتشابه في القرآن الكريم، فقد ذكر ان المتشابه على قسمين: ما لا يعلم تأويله الا الله تعالى، وما لا يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم، ثم بيّن الحكمة من ورود هذين القسمين في القرآن الكريم، فإن علة ورود القسم الأول تحقيق الأهداف الكبرى في القرآن وهي: (ربط الإنسان الذي يعيش الحياة الدنيا بالمبدأ الأعلى وهو الله سبحانه، وبالمعاد وهو الدار الآخرة وعوالمها، وهذا الربط لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق إثارة الموضوعات التي تتعلق بعالم الغيب... لينمي غريزة الإيمان التي فطر الإنسان عليها، ويشده إلى عالمه الذي سوف ينتهي إليه)[١٠٤].

أما الحكمة من ورود القسم الثاني من المتشابه في القرآن (فإنه أراد أن يطرح أمام العقل البشري قضايا جديدة، كبعض المسائل الكونية أو الإنسانية وغيرها من المفاهيم الغيبية، لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة، أو يقترب منها بالقدر الذي تسمح له معرفته ودرجته في تلك المعرفة)[١٠٥].

الخاتمة:

هذه جملة من أقوال العلماء والمفسرين اجتهدوا في الجواب عن السؤال الرئيس موضع البحث: ما فلسفة ورود المتشابهات في القرآن؛ الأمر الذي أدّى - بورود المتشابهات - إلى انبثاق الشبهات وانتشارها للتشكيك في القرآن، وتلقّفها من قِبل النفوس المريضة والقلوب الضعيفة؟ لعل في بعض الإجابات بعض الفوائد؛ لتنير الدرب وتفسح المجال للتعمق أكثر في الحكمة من ورائها.

وبعد البحث والتنقيب وتتبع وجوه الحكمة من ورود المتشابهات من الآيات القرآنية بين طيات الكتب القديمة والحديثة، والمؤلفات العتيقة والجديدة، وجدنا:

- ليس المقصود بالتشابه في الآيات القرآنية محض تشابه في العلاقة بين اللفظ ومعناه اللغوي، وإنما يقع ضمن نطاق التشابه في تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه الواقعي الموضوعي.
- ثمة تباين في التعامل مع الآيات المتشابهة فكلّ يعمل على شاكلته ونصرة مذهبه، فمنهم من يحملها على ظاهرها فيقع في خطر الانحراف عن الدين، ومنهم من يؤولها بأجمعها، ومنهم من يسلّم لها تاركا العلم بحقيقتها إلى الله تعالى، ومنهم من يخلط بين الأمرين.
- أما مسلك الراسخين في العلم فهؤلاء هم الذين أطلعهم الله من علم تأويل المتشابهات بما شاء وهم الذين ينظرون ببصائر قلوبهم المنورة بنور الله وعيون عقولهم، فهم يشاهدون وجه الله في كل موجود اذ قد شرح الله صدورهم للإسلام، ونوّر قلوبهم بنور الإيمان، وكشف عنهم حجب الغيوب.
- إن اجتهاد العلماء ومحاولاتهم منذ القدم وحتى عصرنا الحاضر للوصول إلى الحكمة من ورود المتشابهات في القرآن لهو خير دليل على أهمية الموضوع وضرورة البحث فيه للوصول إلى التفسير الأمثل والاقتراب من مراد الله بحسب الطاقة والقدرة البشرية.

- أكثر الآراء شمولية وحداثة في الحكمة من ورود المتشابه ما طرحه العلامة محمد باقر الحكيم فقد قسم المتشابه على قسمين، الهدف من القسم الأول ربط الإنسان بالله وبالمعاد، والهدف من القسم الثاني ان الله تعالى أراد أن يطرح أمام العقل البشري قضايا جديدة، كبعض المسائل الكونية أو الإنسانية وغيرها من المفاهيم الغيبية، لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة.

هوامش البحث

(١) ظ المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني: ٤٤٥
(٢) ظ القاموس المحيط، الفيروزآبادي: ٤ /٢٨٦
(٣) ظ لسان العرب، ابن منظور: ١٢ / ١٤٣
(٤) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٩٠ / ١٢
(٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ٩
(٦) سورة الزمر: ٥٦
(٧) سورة القمر: ١٤
(٨) سورة محمد: ٢٣
(٩) التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١ / ١٠
(١٠) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ١٧١
(١١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ٧
(١٢) سورة المدثر: ٣١
(١٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٩٠ / ١٢
(١٤) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، محمد الصادقي الطهراني: ٥ / ٤٧
(١٥) سورة الزمر: ٢٣
(١٦) سورة البقرة: ١١٨
(١٧) سورة الأنعام: ٩٩
(١٨) سورة البقرة: ٢٥
(١٩) سورة آل عمران: ٧
(٢٠) سورة هود: ١
(٢١) سورة يونس: ١
(٢٢) سورة لقمان: ٢ – ٣

(٢٣) الميزان، الطباطبائي: ١٦ / ٢١٤
(٢٤) سورة الزمر: ٢٣
(٢٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: ١٥ / ٤٨
(٢٦) سورة آل عمران: ٧
(٢٧) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٣ / ٣١٨
(٢٨) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ١٦٩
(٢٩) م. ن: ١٧١
(٣٠) التمهيد، محمد هادي معرفة: ١ / ٦٠
(٣١) سورة النور: ٣٥
(٣٢) التمهيد: ١ / ٦٠
(٣٣) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، محمد الصادقي الطهراني: ٥ / ٤٠
(٣٤) سورة القيامة: ٢٣
(٣٥) سورة الشورى: ١١
(٣٦) سورة الأنعام: ١٠٣
(٣٧) الذخيرة القرآنية، تحسين البكاء: ٣٠
(٣٨) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، محمد الصادقي الطهراني: ٥ / ٢٨
(٣٩) م. ن: ٥ / ٤٧
(٤٠) ظ تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٣ / ١٦٣- ١٦٤
(٤١) سورة الأنعام: ١٥١
(٤٢) ظ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ٣
(٤٣) سورة فاطر: ١٠
(٤٤) سورة النحل: ١٠٢
(٤٥) سورة الحديد: ٢٩
(٤٦) سورة الصف: ٥
(٤٧) سورة هود: ٣٧
(٤٨) سورة البقرة: ١١٥
(٤٩) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح: ٢٨٤
(٥٠) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٢ / ٧٨
(٥١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني: ٢ / ٥٤٥
(٥٢) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ١ / ٣٥

(٥٣) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة، ابن رشد: ١٣٩
(٥٤) ظ المسائل القدسية، الملا صدرا: ٧٦
(٥٥) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني: ٢ / ٥٤٦
(٥٦) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح: ٢٨٥
(٥٧) سورة طه: ٥
(٥٨) ظ مجمل مواقف علماء الأمة الإسلامية من تأويل متشابهات النصوص الشرعية، محمد يعقوبي خبيزة، مجلة دعوة الحق/ المغرب،العدد ٣٠٥: ١٢
(٥٩) المسائل القدسية، الملا صدرا: ٧٧
(٦٠) م. ن: ٧٧
(٦١) الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي: ٢ / ٢٧٧
(٦٢) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ١ / ٣١٨
(٦٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ٩٨، وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢ / ٧٢
(٦٤) المسائل القدسية، الملا صدرا: ٧٨
(٦٥) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ١ / ٣١
(٦٦) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي: ٧ / ١٨٤
(٦٧) م. ن: ٧ / ١٨٨
(٦٨) الميزان: ٣ / ٦٥
(٦٩) سورة القيامة: ٢٣
(٧٠) سورة الأنعام: ١٠٣
(٧١) ظ مفاتيح الغيب، الفخر الرازي: ٧ / ١٨٥
(٧٢) التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١ / ١٠
(٧٣) سورة آل عمران: ٧
(٧٤) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد: ١٤٨
(٧٥) التمهيد: ١ / ٦٠
(٧٦) سورة البقرة: ٢٦
(٧٧) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد: ١٤٨
(٧٨) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ٨٦
(٧٩) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ٨٦
(٨٠) سورة آل عمران: ١٤٢
(٨١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي: ٧ / ١٨٥

(٨٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٢ / ٧
(٨٣) م. ن: ٢ / ٧
(٨٤) مفاتيح الغيب: ٧ / ١٨٥
(٨٥) التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١ / ١١
(٨٦) التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١ / ١١
(٨٧) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٣ / ١٧٠
(٨٨) مفاتيح الغيب: ٧ / ١٨٦
(٨٩) الميزان: ٣ / ٦٥
(٩٠) مفاتيح الغيب: ٧ / ١٨٥
(٩١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٣ / ١٧٠
(٩٢) م. ن: ٣ / ١٧٠
(٩٣) الميزان: ٣ / ٦٥
(٩٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٢ / ٧٥
(٩٥) م. ن: ٢ / ٧٦
(٩٦) ظ تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٣ / ١٧٠
(٩٧) مفاتيح الغيب: ٧ / ١٨٦
(٩٨) الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ٣ / ٦٧
(٩٩) سورة آل عمران: ١٠٢
(١٠٠) الميزان، الطباطبائي: ٣ / ٦٨
(١٠١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ٣ / ١٧٠
(١٠٢) م. ن: ٣ / ١٧١
(١٠٣) الميزان، الطباطبائي: ٧٠
(١٠٤) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم: ١٨٩
(١٠٥) م. ن: ١٩٠.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي، ضبطه وصححه وخرّج آياته: محمد سالم هاشم، ط: ٢، ١٣٨٧ه

٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٦ه - ٢٠٠٥م، بيروت - لبنان

٣) بحار الأنوار، الجامعة لدرر أخبار الائمة الاطهار: محمد باقر المجلسي، مؤسسه الوفاء، ط٢، بيروت، ١٩٨٣م.

٤) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط:١ دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٦ه ــ ١٩٥٧م

٥) تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط: ٢، ١٣٩٣ه - ١٩٧٣م، دار التراث، القاهرة

٦) التبيان في تفسير القرآن، محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: احمد حبيب قصير العاملي، ط:١ ايران ، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩هـ

٧) تفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، ط: ٢، ١٣٧٤ه، مؤسسة الهادي، إيران - قم المقدسة

٨) تفسير المنار، دروس الشيخ محمد عبده، تأليف السيد محمد رشيد رضا، ط: ٣، دار المنار، ١٣٦٧ه، مصر

٩) التمهيد في علوم القرآن، محمد هادي معرفة، دار التعارف للمطبوعات، ١٤٣٢ه - ٢٠١١م، قم المقدسة

١٠) الذخيرة القرآنية، تحسين البكاء، مكتبة دار الباقر/ النجف الأشرف، ط: ١، ١٤٣٣ه - ٢٠١٢م

١١) علوم القرآن، محمد باقر الحكيم، مجمع الفكر الإسلامي، ط: ٥، ١٤٢٤ه.ق، إيران - قم المقدسة

١٢) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة، محمد الصادقي الطهراني، ط: ٢، ١٤٠٦ه، دار التراث الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم المقدسة

١٣) القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م، بيروت - لبنان

١٤) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة، أبو الوليد محمّد بن أحمد بن رشد الأندلسي، سلسلة التراث الفلسفي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط: ١، ١٩٩٨م، بيروت - لبنان

١٥) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط ١، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان

١٦) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط١٠ - ١٩٧٧م - بيروت

١٧) المسائل القدسية، محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي الملقب بالملا صدرا، تعليق وتصحيح: سيد جلال الدين آشتياني

١٨) مفاتيح الغيب، محمد بن زكريا الرازي، ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت.

١٩) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، تحقيق محمد خليل عيتاني،ط: ٤، دار المعرفة بيروت- لبنان ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.

٢٠) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، تصحيح: أمين سليم الكردي، ط: ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان

٢١) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة دار المجتبى للمطبوعات، ط: ١ ١٤٢٥ه - ٢٠٠٤م، إيران - قم المقدسة

المجلات:

٢٢) مجمل مواقف علماء الأمة الإسلامية من تأويل متشابهات النصوص الشرعية، محمد يعقوبي خبيزة، مجلة دعوة الحق، المغرب، العدد ٣٠٥